﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٨٤﴾ [الشُّعراء: 184]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

تـوكـيـدُ الأمـر بـالـتَّـقـوى، وتعليلُه بالدَّليل الـنّـاصـع، والبرهانِ الباقع

سُبقتْ هذهِ الآيةُ المُبارَكةُ بأمرِ سيدِنا شُعيبٍ ﷺ قومَهُ بالتّقوى مرَّتين: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾ [الشّعراء: 177]، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩﴾ [الشّعراء: 179]، ولمّا كان جُرْمُهم مُتعلِّقًا بحقوقِ العبادِ، وظُلمُهم بخُسران الكيلِ والميزانِ وبَخْسِهم أشياءَهم، وعُتوِّهم في الأرضِ فسادًا: ناسب هنا أن يُكَرِّرَ الأمر بتقوى الله، مُذكِّرا إيّاهم بأنَّه خالقُهم وخالقُ آبائهم: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ تَنْبيهًا على أَنَّ مَنْ أَوْجَدَهُم وأَوْجَدَ مَنْ قَبْلَهُم قادِرٌ على أَنْ يُعَذِّبَهُم ويُهْلِكَهُم كما أهلك من سبَقوهم[1].

ولمّا وعَظَهُم فأبْلَغَ في وعظِهم، بما خَتَمَهُ بالنَّهي عن الفسادِ، خَوَّفهم مِنْ سَطَواتِ اللهِ تعالى ما أَحَلَّ بِمَنْ هو أعظمُ منهم، فقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي كما أهلك مَن كان قبلَكم، فإهلاكُكم أهونُ شيءٍ عليه[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾: (جبل) أصلٌ يطَّردُ ويُقاسُ، وهو تَجَمُّعُ الشَّيءِ في ارتفاعٍ، ومنه الجَبلُ، والجِبِلُّ: الجماعةُ العظيمةُ الكثيرةُ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾ [يس: 62]، والجِبِلَّةُ الخليقةُ[3]، وهيَ مِنْ جُبِلوا على كَذا، أَيْ خُلِقوا؛ قيلَ: وتَشْديدُ اللّامِ لِلمُبالغَةِ، وهي في قول اللهِ تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ بمعنى الجماعةِ الكثيرةِ من المخلوقات، قال ابْنُ عَبّاسٍ: الجِبِلَّةُ: عَشَرَةُ آلافٍ[4].

(1) أبو حيّان، البحرُ المُحيطُ: 8/ 187.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 88.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جبل).
(4) أبو حيّان، البحرُ المُحيطُ: 8/ 187.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مـصـيرُ الأمـمِ المكذّبةِ واحدٌ

استمرارُ الأمرِ الإلهيِّ لشعيبٍ عليه السلام بأمرِ قومه بالتّقوى وتخويفِهم من مصيرِ الأمم التي سبقتهم، وأنّهم لن يكونوا أقوى منهم ولا أكثر جمعًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة الوصلِ وبلاغتُه:

قـوّةُ دلـيـلِ التَّقوى تكمنُ في تفرُّدِه بعد الأمر به السّابق

جاء قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ موصولًا بالواوِ عطفًا على قولِه السّابق: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾﴾ [الشعراء: 179] للتَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْنِ، حيثُ اتَّفقتِ الجُملتانِ في الإنشائيَّة، فكلتاهُما مبدوءةٌ بأمرٍ، فهو من جهةٍ: تأكيدٌ للأمرِ السّابقِ، مع ما فيه من زيادةِ ذِكرِ دليلِ استحقاقِ التَّقوى بأنَّ اللّهَ خَلَقَهُم وخَلَقَ الأُمَمَ مِن قبلِهم؛ وهذا مُسوِّغُ العطفِ بالواوِ، إذْ لوْ كانَ مُجرَّدَ تأكيدٍ لم يصحَّ عطفُه[1].

غرضُ الأمرِ بالتّقوى دون الأمر بالإيمانِ:

التّـقـوى مَـفـزَعُ الـعـقـلاء قبل الإيـمـان، ومَـجـمَـعُ الخير بعده

آثرَ النَّظمُ الكريمُ الأمرَ بالتَّقوى دون الأمرِ بالإيمانِ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ ليُبْرِزَ تنكُّبَهُمُ الطَّريقَ الحقَّ وبُعدَهم عنهُ في اتِّباعِهم ما كانَ عليهِ آباؤُهم، وأنَّهم بذلكَ يجبُ أنْ يتذكَّروا اللّهَ الذي خلقَهم وخلقَ آباءَهم الأوَّلينَ، ويَحذروا عِقابَه وانتقامَهُ؛ فالتَّقوى هي مفزعُ العقلاءِ قبل الإيمان، ومجمعُ الخير بعد الإيمان.

دِلالةُ التعبير بالأمر في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾:

التَّهديدُ والوعيدُ لمن استمرَّ على عصيانه وظلمه

أفادَ فِعلُ الأمرِ بالتّقوى في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ التَّهديدَ والوعيدَ، لأنَّهم ليسوا أتقياءَ، بل هم في غمرة المعاصي، وبئرِ الكبائر؛ فوراءَ الأمر بالتّقوى إيحاءٌ بتوعُّدِهم إن همُ استمرّوا

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنويرُ: 19/ 185.

على عِصيانِهم وظُلمِهمُ النّاسَ، وفيه إيحاءٌ بانحرافِهم عنْ طريقِ الجادَّةِ، وسُلوكِهم طُرُقَ الفسادِ.

نكتةُ التّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

تعليلُ الخطابِ الإنشائيِّ سمةٌ للنّظمِ القرآنيّ

آثر النّظمُ الكريم التّعبير بالاسمِ الموصولِ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ دون الاسم الصريح بأن يُقال: (واتّقوا خالقَكم): ليُبرزَ علّةَ الأمرِ بالتّقوى، فهو الأحقُّ بأن يُتّقى، ووراءَه تعريضٌ وإيماءٌ إلَى نَبْذِ اتّقاءِ غَيْرِهِ مِنْ شُرَكائِهِم[1]؛ ولعدمِ علمِ المُخاطَبِ بالأحوالِ المُختصَّةِ به سِوى الصِّلة[2]، فهُم، مع إنكارهم عبوديّةَ اللّه وتفرُّدَه بالألوهيّة، يُقِرّونَ للّهِ بالخلْقِ، فخاطبهُم بما يعترِفونَ به، ليكونَ دليلًا على ما يُنكِرونَ.

فائدةُ عطفِ ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ﴾ على ضميرِ الخطاب:

جَمْعُهُم في مَشْهَدٍ واحِدٍ ليَكونَ أَوْقَعَ في الحُجَّةِ

عُطفَ ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ﴾ على ضَميرِ المَفْعولِ بِهِ (كُم) في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ﴾، واستغنيَ به عن تكرار فعلِ الخلق لِما في العَطْفِ من نيَّةِ تَكْرارِ العامِلِ، فلَم يَقُلْ: (واتّقوا الّذي خَلَقَكُم وخَلَقَ الجِبِلَّةَ الأَوَّلِيْن)، فبالعطفِ يكون الفِعْلُ مُكَرَّرًا تقديرًا؛ وليَجْمَعَ خَلْقَهُم وخَلْقَ الأُمَمِ السّابقة في فعلٍ واحدٍ، ومَشْهَدٍ واحِدٍ، ليَكونَ أَوْقَعَ في الحُجَّةِ والبُرْهانِ؛ فالذي خلق الأولين هو خالقُ المخاطَبين.

مُناسَبةُ تَقْديمِ ضَميرِ الخِطابِ على ﴿وَٱلْجِبِلَّةَ﴾:

العنايةُ بالتّقديمِ منعقدةٌ على مقاصدِ الكلام

قُدِّم ذكرُ ضمير المخاطَبين على الاسم الصّريح العائدِ على آبائهم في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فلم يقل: (الذي خلق الجبلة الأولين وإيّاكم): لأنَّه موضع الاهتمام والفائدة؛ فهم المأمورون بالتّقوى، وذكْرُ الجبلَّة الأوّلين إنّما هو من باب التّنبيه على أنَّ مردَّهم ومآلهم إلى ما آلَ إليه المتقدِّمون.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنويرُ: 19/ 185.
(2) التّفتازانيّ، مختصر المعاني: 1/ 42.

فائدةُ استعمالِ ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ صيغَةً وتعريفًا:

لَفْظُ ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ في قول الله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ معناه الخلقَة، وهو مَحْمولٌ على ظاهِرِه؛ وأريد به المخلوقاتُ؛ لأنّه اسْمٌ كالمَصْدَر، ولِهَذا وُصِفَ بقوله: ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وقيلَ: أُطْلِقَ ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ على أَهْلِها، أَيْ: وذَوي الجِبِلَّة الأَوَّلين؛ والمَعْنَى: (الَّذي خَلَقَكُم وخَلَقَ الأُمَمَ قَبْلَكُم)[1].

الجِبِلَّةُ الأوّلون معهودون للمخاطَبين بأخبارِهم الثّابتة

و(أل) في لفظ ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ لِلْعَهْدِ الذِّهْنيِّ، فهُم مَعْهودونَ في أَذْهانِهم مَعْروفونَ لَدَيْهُم، تَنْتَقِلُ أَخْبارُهُم مِنَ السَّلَفِ إِلَى الخَلْفِ، وهَذا أَوْقَعُ في الاِسْتِدْلالِ.

نُكْتَةُ اختيارِ مادّةِ ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾:

الإيماءُ إلى سببِ كفرِ الأوّلين، ليقع التّهديدُ للّاحقين

آثَرَ النَّظم الكريم استعمالَ لَفْظِ ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ لأَنَّ الموصوفينَ بها جُبِلوا على العِنادِ وتَكْذيبِ الرُّسُلِ، وكانوا ثابتِيْنَ عليْه فلَم يُزَحْزِحْهُم عَنِ التَّكْذيبِ شَيْءٌ؛ وقَدْ رأى المخاطَبون ما فعل الله بِهِم لمّا كَذَّبوا رُسُلَهُ، فليحْذَروا أَنْ يَكونوا مِثْلَهُم، فيَنْزِلَ بِهِم ما نَزَلَ بِهِم[2]، ومادّة ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ توحي بِالغِلْظَةِ والتَّجَمُّعِ والكَثْرَةِ، والتَّشْديدُ في اللّفظ لِلْمُبالَغَةِ في المعنى؛ ووَراءَهُ إيحاءٌ بِأَنَّهُم جُبِلوا على الكُفْرِ والمُكابَرَةِ والعِنادِ، واجْتَمَعوا عليه، ومِن أَبْرَزِ صِفاتِهِم الصَّلَفُ والكِبْرياءُ؛ وإِذا كانَ الله خَلَقَهُم وأَهْلَكَهُم وهُم أَشَدُّ مِنْكُم، فإِنَّهُ قادِرٌ على إِهْلاكِكُم، فهذا من باب ذكْرِ الدَّليل النّاصع، الذي لا يُمارَى فيه، ولا يُدارى حوله.

بلاغةُ وصف ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾ بـ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

الاعتبارُ سنَّةُ العقلاء، وديدنُ الحكماء

وُصِفَ الجِبِلَّة بِالأَوَّلينَ في قولِ اللهِ تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ للإِشارَةِ إِلَى أَنَّهُم يَجِب أَنْ يَأْخُذوهُم عِبْرَةً أَمامَهُم،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 185.
(2) الشَّعراويُّ، تفسيرُ الشَّعراويِّ: 17/ 10677.

ويَتَّعظوا ويَرْتَدِعوا بِما حَدَثَ لِسابقيهم، وقَدْ كانوا أَكْثَرَ منهم وأَشَدَّ قوَّةً؛ والقادِرُ على إِهْلاكِ الأَشَدِّ قادِرٌ على إِهْلاكِ مَنْ هوَ دونَهُ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخِلْقَةُ والجِبِلَّة:

الخِلْقَةُ: هُم الخَلْقُ عُمومًا، بَيْنَما الجِبِلَّة اسْمٌ يَقَعُ على الجَماعاتِ المُجْتَمِعَةِ مِنَ النّاسِ، حَتَّى يَكونَ لَهُم مُعْظَمٌ وسَوادٌ، وذَلِكَ أَنَّ أَصْلَ الكَلِمَةِ: الغِلَظُ والعِظَم، ومنه قيلَ الجَبَلُ، لِغِلَظِهِ وعِظَمِهِ، كما في الآية: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: 62]، أي: جَماعاتٍ مُخْتَلِفَةً مُجْتَمِعَةً أَمثالَكُم.

الخِلْقَةُ الخَلْقُ عُمومًا، والجِبِلَّةُ الجَماعاتُ غَليظَةُ الطِّباعِ

والجِبِلُّ: أَوَّلُ الخَلْقِ، جَبَلَهُ إِذا خَلَقَهُ الخَلْقَ الأَوَّلَ، وهوَ أَنْ يَخْلُقَهُ قِطْعَةً واحِدَةً قَبْلَ أَنْ يُمَيِّزَ صورَتَهُ، كما قيلَ: جُبِلَتِ القُلوبُ على حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْها؛ وذَلِكَ أَنَّ القَلْبَ قِطْعَةٌ مِنَ اللَّحْمِ، وذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى مَعْنَى الغِلَظِ[1].

فالجِبِلَّةُ في الآية تُشيرُ إِلَى صِنفٍ مَخْصوصٍ مِنَ النّاسِ، غِلاظِ جُفاةٍ اجْتَمَعوا على المُعانَدَةِ والمُكابَرَةِ ومُحارَبَةِ اللّه، وصارَتْ تِلْكَ الصِّفاتُ السَّيِّئَةُ طَبْعًا فيهم وفِطْرَةً لا يَسْتَطيعونَ التَّخَلُّصَ منها، وهَذا شأنُ الأُمَمِ الّتي أُهلِكَت.

الأَوَّلونَ والمُتَقَدِّمونَ:

الأَوَّلُ لا يَقْتَضي ثانيًا، يُقالُ هَذا أَوَّلُ مَوْلود ولِدَ لِفُلانٍ وإِنْ لَم يولَدْ لَهُ غَيْرُهُ، ويُقالُ أَوَّلُ عَبْدٍ يَملِكُهُ حُرٌّ وإِنْ لَم يَملِكْ غَيْرَهُ، ولا يَخْرُجُ العَبْدُ والابْنُ مِنْ مَعْنَى الابْتِداءِ؛ فلَفْظُ الأَوَّلِيْنَ يَعْني أَنَّهُم مُتَفَرِّدونَ في جَبَروتِهِم، وأَنَّهُم لا يُشْبِهُهُم غَيْرُهُم في قوَّتِهِم، ومَعَ ذَلِكَ أَهْلَكَهُم،

الأَوَّلــونَ جمعُ أَوَّل وهــوَ لا يَقْتَضي ثانيًا، والمُتَقَدِّمونَ السّابِقونَ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 156.

والمُتَقَدِّمُ ليس فيه هذا المعنى، بل هو خِلافُ المُتَأَخِّرِ؛ فالتَّقَدُّمُ حُصولُ الشَّيْءِ قُدّامَ الشَّيْءِ، ومنه القَدَمُ؛ لأَنَّه يُتَقَدَّمُ بها في المَكانِ في المَشْيِ، وقوادِمُ الرّيشِ العَشْر المُتَقَدِّمات، ويُقالُ: قَدِمَ العَهْد وقَدِمَ البِلَى، أَيْ: طالَ، وكُلُّ ما يُقَدَّمُ فهوَ قَديمٌ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 91.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»